فى الحب أيضا

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كتبت إلىّ سيدة أعرفها فاضلة لبيبة تسألنى عن الحب كيف أقول فيه ما قلت ؟ وعن المرأة كيف أبسط لسانى فيها كل هذا البسط ؟ وعن الحب الافلاطونى ماذا ترى رأيى فيه ؟ وختمت كتابها باتهام الرجال بقلة الوفاء ، وبالغدر وكثرة التقلب

وقد استخلصت من كتابها أن مقالى الذى تفضلت بنشره « الرسالة » لم يصادف منها ارتياحاً ولم يلق قبولاً . ولست أستغرب هذا ، أو أنكر عليها امتعاضها ، فانى أعرف أن كل رأى فيه من الهوى أثر ؛ والمرء يميل بمزاجه إلى ما هو أحب اليه من الآراء وأكثر موافقة أو مجاراة لهذا المزاج ؛ وما يزال الانسان يوحى إلى نفسه حتى يصير الأمر عنده عقيدة راسخة لا تتزعزع ولا يسهل زحزحته عنها ؛ ولو أن انساناً استطاع أن يتبين مبلغ أثر الايحاء الذاتى فى آرائه لحاله ذلك ، ولذهب إيمانه بالعقل وقدرته على النظر المجرد ، ولأيقن أنه ما من رأى إلا وهو وليد عاطفة ، فولد عاطفة ؛ والانسان يعيش بالطبع أكثر مما يعيش بالعقل . وأحسبنى لا أخطىء جداً حين أقول إن عقل كل فرد يُصب فى قالب من طباعه ، فليست هذه التى نفكّر بها « عقولاً » ، وإنما هى طباع وأمزجة اتخذت صوراً مزوّرة ؛ وأصل الخطأ أنا سميناها « عقولاً » فصار لها فى وهمنا ، على الأيام ، استقلال لا وجود له

وليس الذى نشرته لى « الرسالة » رأياً فى الحب ، وإنما هو بيان لحالات يجر اليها ، ومواقف يستدعيها ، ولا أرى لى صبراً عليها ؛ أما الحب فليس لغزا ، وما على من يريد فهمه على الوجه الصحيح إلا أن ينضو عنه كل ما خلع عليه الشعراء ولفوه فيه ، حتى أخفوه وحجبوه ؛ وليس هذا كل ما جنى الشعر ، وما هو إلا بعض ما مسخ من حقائق الحياة . والشعراء كالكهان الأقدمين — دأبهم التهويل على الناس وإيهامهم أنهم وحدهم دون خلق الله أهل العلم والاحاطة والبصر والاتصال بالحقائق العليا والأسرار المحجوبة — لا ، بل الشعر ضرب من الكهانة ، ومظهر من مظاهرها — أى نوع من الدجل . ولا نكران أن الشاعر والكاهن يبدآن مخلصين صادق السريرة — وكذلك كل غرير قبل أن يجرب — ولكن الأمر يتحول شيئاً فشيئاً إلى صناعة ، فلا تصدق من يقول لك إن الشاعر يظل عمره — إلى آخره — طفلا كبيراً ، فان هذا ليس إلا بعض دجل الشعراء — أو هو بعض ما يوحون إلى نفوسهم ويلحون به عليها ليكونوا أقدر على الدجل ، والدجال يحتاج إلى اكتساب « مظهر » الاخلاص ليستطيع إقناع الناس . وقد رأيت فى زمنى دجالين كثيرين كان أبرز صفاتهم قدرتهم على مغالطة أنفسهم بالايحاء اليها ؛ والشعراء أبرعهم جميعاً لأنهم ألح على نفوسهم ، وأكثر استلهاماً منها ، وسبباً للتأثير فيها ، ودؤوباً على مناجاتها

أعود إلى هذا الحب فأقول إنه ليس فيه سر ، فهو ضرب من الجوع ، أو هو إذا شئت نوع من التنبيه تلجأ اليه الطبيعة لتفرينا بما يكفل المحافظة على النوع كما تنبهنا بالجوع ، فنبغى ما نحافظ به على ذواتنا . وعلى ذكر الجوع أقول إنى أذكر أنى أيام كنت أقول الشعر نظمت قصيدة نشرت فى الجزء الاول من ديوانى وفيها أن الحب أصاب منى « شبعه » فاستبشعها صديق لى أكبر رأيه وذوقه ، وأنكر علىّ أن أذكر « الشبع » فى معرض كلام على الحب ، فوافقته على رأيه ، ولكنى تركت البيت على حاله ، عجزاً عن تنقيحه ، أو إهمالاً ؛ ولولا أنى أرفض شعرى كله لقلت إنى الآن أرانى أحسنت

فالحب — كالجوع — اشتهاء ، أى إيذان بأن الجسم يطلب أن تسد له حاجة ، وليس الطعام هو الغاية من الأكل ، بل ما يفيده من الصحة والقوة واستمرار الحياة ؛ كذلك ليست المرأة هى الغاية من الحب ، بل ما تعين عليه من بقاء النوع بالانتاج ؛ وكما أن المرء يغلط فيأكل ما لا خير فيه ولا صحة تستفاد منه ولا قوة ، بل ما لعله يضر ويورث المرض ، كذلك يغلط الانسان فيحب ما لا يحقق الغاية التى ترمى اليها الطبيعة . والمرء يكون مترفا فى حبه كما يكون مترفا فى طعامه وملبسه وما الى ذلك ؛ ومن الناس من يأكل طعامه جرفا ، والبطان الذى لا ينتهى منه ، والمخلّط من صنوفه والمستقصى لها ، والقَرُون الذى يأكل

لقمتين لقمتين ، والذى يكره معدته على الزيادة بعد الشبع ، والذى يسرع فى الأكل كراهة لطول الجلوس له ، والذى يضع يده على ما أمامه لئلا يتناوله الغير ، والذى يجيل اللقم ولا يمضغها ، والذى يلوك ، والذى يأكل نصف اللقمة ويرد نصفها ، والزهيد القليل الأكل ، والمريض ، والضعيف الاشتهاء ، والمتجشّف .
وكذلك أرى الناس يكونون فى حبهم ، بل الانسان الواحد يكون مرة هكذا ، ومرة هكذا ؛ والتوابل وما اليها لازمة للحب أحياناً لزومها للطعام ؛ واللحم هو هو كيفما طبخته ، ولكنه تارة يكون أشهى مشوياً ، وتارة أخرى يكون ألذ وهو مسلوق ، أو مقدد أو مشرح أو معلق فى السفود ، أو مخلوط بالرز أو البيض أو الخضر أو غير ذلك ؛ وقل مثل ذلك فى غير اللحم من الآكال فما أردنا إلا التمثيل ؛ وكذلك المرأة ، فمن كانت يعنيها أن يبقى حب الرجل لها أطول زمن ممكن ، فلتكن على كل لون وعلى كل صورة تُشتهى

ولا احتاج بعد هـذا أن أقول : إنى لا أومن لا بالحب الأفلاطونى ولا بالوفاء ، ولست أعنى أنى أستهجنهما أو أعيبهما ، فليس الأمر أمر استهجان أو عيب ، وإنما أعنى أنهما لا يوجدان مع الصحة والسلامة ؛ وإذا كان من الممكن أن يشبع الجائع بالنظر إلى الطعام فى أطباقه على السفرة ، وأن يحيا المرء بأن يأكل بعينه أو خياله ، فانه يكون من الممكن أيضاً إرضاء عاطفة الحب عند الرجل السليم المعافى بالنظر إلى المرأة والاستماع إلى حديثها والتمتع بابتسامتها ورشاقة وقفتها أو حسن جلستها . والذى يقنع من المرأة بذلك يكون أحوج إلى الطبيب المداوى منه إلى المرأة .

أما الوفاء فأكرم به وأنعم ! ولكن أين فى دنيانا من يصبر على طعام واحد وفى وسعه ألا يفعل ؟ وأقول « من يسعه ألا يفعل » وأنا أعنى ما أقول ، فما يلتزم الوفاء إلا من يعجز — بسبب ما — عن خلافه . وأسأل القارىء وأعفيه من الجواب العلنى : أى رجل لم ينقض عهدا بالوفاء بالفعل أو بالنية أو بالخاطر أو بالخيال — على حسب الاحوال ؟ والمرأة كالرجل وشأنها كشأنه . وكذاب من يقول — وكذابة من تدعى — غير ذلك . ولست أدعو إلى شىء ـ وحاشا أن أفعل ـ ولكنى أصف واقعاً ، وأقرر حقا لا يكابر فيه إلا منافق يريد أن ينتح فضلا على حسابى وحساب الحقيقة . والذى يجعل الوفاء مستحي فى الواقع أن الحياة قائمة على التحول لا على الثبات ، والمرء يتغ حتى ليمكن أن يقال إنه يخلق كل يوم خلقاً جديداً مولداً م الخلق السابق أو أنه يموت ويجىء غيره باسمه ؛ وكل يوم يجى هو يوم مائه ، ويبعث بعده كرّة أخرى فى صورة تخالف الأ من بعض الوجوه . وقد شرحت هذا من قبل فى مقالات ش فى « البلاغ » و « الأهرام » ولا أذكر أين أيضاً ، فلا أعيد ه ما قلت .....

وليس هذا رأياً جديداً لى ، فقد نظمت فيه شعراً كثير نشر بعضه ، ولن ينشر البعض الآخر ؛ وأذكر مما نش هذه الأبيات :

أكلما عشت يوما أحسست أنىَ مِتُّهْ

(من قصيدة الملل من الحياة)

* * *

إنى أرانى قد حلتُ وانتسخت   مع الصبى سورة من السو
وصرت غيرى فليس يعرفنى   ـ إذا رآنى ـ صباى ذو الطر
ولو بدا لى لبت أنكره   كأننى لم أكنه فى عمر
كأننا اثنان ليس يجمعنا   فى العيش إلا تشبث الذ
مات الفتى المازنى ثم أتى   من مازنٍ غيرُه على الأ

(من قصيدة كأس النسيان)

* * *

هذه كفى على خون العهود   لا على الرعى ـ فهذا لا يكو
إنها دنيا كِذاب وجحود   ولصدق النفس أولى ـ لو يهو
هذه كفى على وشك الملال   كل نار سوف يعلوها رما
آهِ لو أستطيع تصديقَ الخيال !   أو يكون الجهل شيئاً يستفا

* * *

ياعقيدى طامن الله حشاك !   لن ترانى شاكيا وهىَ حبالك
أين من طينتنا ـ أين ـ الفكاك ؟   أنت انسان على فرط جلالك

(من قصيدة معاهدة غرامية)

* * *

وحسبى هذا القدر ، وعسى أن يكون كافياً فى جواب السؤال

ابراهيم عبد القادر المازنى